

## محورية الفاعل البشري في الخطاب السردي القرآني

الأستاذ الدكتور يادكار طيف الشهري

رئيس قسم اللغة العربية، كلية اللغات، جامعة صلاح الدين – أربيل

ومحاضر في كلية القانون، جامعة اشك – أربيل

المقدمة:

أحدث القرآن الكريم منذ نزوله ثورة كبيرة في الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية، فوجه المسلمين نحو نهضة شاملة في جميع ميادين الحياة، نتج عنها بناء حضارة إنسانية كبيرة، أثارت العالم بمعالمها الشامخة، فأصبحت مركز التحول في مسيرة البشرية، وفتحت صفحة جديدة للتعاليم والسلم ونشر العدل. ورافق هذا التحول الكبير الذي أحدثه القرآن الكريم في جميع الأصعدة، تحول أكبر في المستويات الثقافية والمعرفية والحقوقية؛ إذ نشطت تحت هديه حركة علمية عميقة، أسهمت بشكل مباشر في ابتعاث العلم والمعرفة، وفي تأصيل العلوم وابتداعها، وتأتي علوم القرآن، والبلاغة، واللغة، وأصول الفقه، في مقدمة هذه العلوم التي أراد بها العلماء خدمة الكتاب المجيد، وإظهار وجوده إعجازه، وجمالياته. فتوالت الدراسات لتناول النص القرآني المعجز من زوايا متعددة، وأوجه مختلفة.

وإذا تأمل المرء طبيعة الدراسات التي أجريت على النص القرآني على مراحل العصور، وجد أنها كانت وليدة لحاجات عصرها الثقافية والفكرية.. . قراءة الكتاب العزيز وتدبره والتأمل فيه عملية متواصلة، تعتمد على القراءة العلمية، وهذا جزء من حكمة الله تعالى، وإرادته، لكي يشعر الإنسان بوجوده، ويعي دوره الفاعل في واقع الحياة المعيش، وفي مسار التاريخ البشري.

ومن هذا المنطلق أنت فكرة هذه الدراسة التي تطمح إلى تعميق الوعي بحضور القرآن، وصلاحيته لكل عصر، وقدرته على التواصل العقани والجمالي مع الأجيال. وقد تضمن السرد القرآني فضاءات تمنح المتلقى حرية لاكتشاف جمالياته المتتجدة، وأحكامه العادلة، والتفاعل معه، وتجلّي هذه الفضاءات التي تجعل الفاعل البشري واعياً ومتذجاً؛ في ترك مسافات فكرية وجمالية له، إذ يقدم القرآن الكريم قصصه في خدمة الدولات الكبرى للحدث وإشاراته الأخلاقية، وتوظف هذه القصص المعطيات التاريخية لخدمة أهدافها الفكرية والتربوية والقانونية عبر نسق فني، وصياغة جمالية معتمدة على ترك التفصيات الروتينية التي تدرك من خلال المشاهد المعروضة، مع التركيز على ذكر ما هو جوهري وأساسي، وما هو في خدمة الجانب العقدي والفكري للقصة، إذ أن التعبير القرآني يجعل من الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فقد جاءت قصص الأنبياء والأمم البائدة سلوكاً لرسول الله – صلى الله عليه وسلم - وتشبيتاً له في مواجهة الضغط الشديد الذي كان يتعرض له من كل جانب، إلا أننا نستشف هذا المفهوم وراء السطور وخلف الأحداث، فعلى سبيل المثال نجد أن الكفار اعترضوا على نزول القرآن على محمد (صلى الله عليه وسلم) وطعنوا في مستواه الطبعي: (وَقُلُّا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ) الزخرف: ٣١ . ففي سياق تقوية الرسول للوقوف تجاه هذا النوع من العقلية المنغمسة في الرؤيا المادية، يعرض القرآن في نسق مقابل اعتراف فرعون على موسى: (وَنَادَى فَرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمَ أَلِي لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبَصِّرُوْنَ {٥١/٤٣} أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مُهِينٌ وَلَا يَكُادُ يُبَيِّنُ) الزخرف: ٥٢-٥١ .

وقد اكتفى الأسلوب القرآني بعرض هاتين اللوحتين المتقابلتين، وترك الاستنتاج للمتلقى دون الانغماس في التوجيهات التي تخلو من القوة النفسية الدافعة، ومن اللمسات الفنية المؤثرة.

يتلف البحث من تمهيد وأربعة مباحث، يعرض الباحث في التمهيد تجليات التوجّه القرآني المبكر نحو المتلقى. وجاءت المباحث الأربع حسب التسلسل الآتي:

١- المسافة الجمالية والوظيفة الانتباهية
٢- المسافة الجمالية والسياق الأصغر
٣- المسافة الجمالية وأسلوبية العرض
٤- المسافة الجمالية والمفاجآت المركبة

### التمهيد:

تجليات التوجّه القرآني نحو الفاعل التشرى:

يؤسس النص القصصي في القرآن الكريم المدى الذي تغدو القراءة في إطاره نشطة، والتفاعل مع الفاعل البشري المتلقى له فعلاً، وذلك من خلال قنوات اتصالية تحكمها مقصدية المخاطب (وهو الله تعالى) لاستثارة المتلقى، وتشكيل وعي قرائي متواصل لديه. فالنص القصصي في القرآن الكريم بناء دلالي شامل متكامل، يتسم بطبيعة دينامية، يجذب المتلقى نحو أفقه، ويحدث تأثيرات متعددة في وعيه ولا وعيه. إذ اعتنى الخطاب القرآني منذ نزوله بالإنسان، فخاطبه بأساليب عديدة، وصاغ له حكمه وأحكامه ومقاصده عبر مستويات أدائية مختلفة، تقف في مقدمتها توظيف السرد من أجل تحقيق التواصل معه وإقناعه على نحو عملي بالأحكام الإلهية المنزلة المجددة في قصص الأفراد والأمم والجماعات، إذ نجد حكاماً تشرعية متعددة وسط القصص القرآنية وفي خاتماتها، كما نجد ذلك في قصة ابني آدم – عليه السلام - التي اختتمت بهذا الحكم الإلهي (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أُوْفَسَادٍ في

الأرض فكانما قتل الناس جمیعاً ومن أحیاها فكانما أحیا الناس جمیعاً وقد جاء تھم رسلنا بالبيات ثم إن كثیراً ممنهم بعد ذلك في الأرض لم يرُون (المادة: ٣٢).

ويتجلى التوجه القرآني المبكر نحو المتلقى/ الإنسان في عدة مستويات:

أولاً مستوى ثقافي متمثل في وجود آيات محكمات، وأيات مشابهات<sup>(١)</sup>. فقد كان هذا التمييز بين نوعين من الآيات مثار سؤال لذكر المتلقى، وتحفيزاً لذهنه نحو التساؤل: لماذا لم ينزل الله كتابه كله (آيات محكمات)، فيبعد المتلقى عن (المتشابهات)، فترتب على ذلك بحوث، واستقصاءات لإبراز الحكمة الإلهية في هذا الأمر، حتى تداخلت مجالات البحث فيه إلى النظر في طبيعة التكليف الإلهي للمتلقى، وإلى الالتفات إلى طبيعة اللغة، وما تحتويه من حقيقة ومجاز، وصريح وكناية، وإفهام بالإشارة، وإفهام بالعbarة، وإلى تنوع دلالات الألفاظ والجمل، ما بين عام وخاص، ومطلق ومقيد، كما تداخلت مجالات البحث فيه إلى التأمل في طبيعة المتكلمين، واختلافهم في درجات الفهم، وفي الميل إلى الظاهر، أو الغوص في المقاصد، وفي الأخذ بالمعنى القريب، أو استبطاط المعنى البعيد<sup>(٢)</sup>.

لقد أسمهم وجود هذين النوعين من الآيات في تحصيل علوم عدة، وفي هذا يقول الرازى: "ولما كان القرآن مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجمي بعضها على بعض، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة، فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد"<sup>(٣)</sup>.

ومستوى ثان تربوي - اجتماعي؛ وهو نزول القرآن منجماً مدة ثلاثة وعشرين سنة، متبايناً مع الأحداث التي أحاطت بالنبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين، وقد لاحظ العلماء وجود حكمتين رئيسيتين في نزول الوحي بهذا الشكل؛ الأولى هي تجاوب الوحي مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليثبت فواده بما يتجدد نزوله من القرآن بعد كل حادثة، ومن أجل تيسير حفظ القرآن عليه<sup>(٤)</sup>.

أما الحكمة الثانية فهي التجاوب مع المؤمنين "ففي القرآن منه صور متعددة، وألوان متباينة، تلتقي كلها عند غاية واحدة: وهي رعاية حال المخاطبين، وتلبية حاجاتهم في مجتمعهم الجديد الأخذ في الإزدهار، وعدم مفاجأتهم بتشريعات وعادات وأخلاق لا عهد لهم بمثلها"<sup>(٥)</sup>.

ومستوى ثالث ثقافي؛ فقد ترك الله تعالى أمر كتابة الوحي إلى المتلقى؛ فلم ينزل مكتوباً في الألواح كما كان الأمر مع التوراة التي نزلت جملة واحدة في الألواح على موسى<sup>(٦)</sup>. وهذا الأمر بحد ذاته ينطوي على بعدين؛ الأول دور المتلقى في حمل أمانة كتابة القرآن. والثاني دور الكتابة في بقاء النص بقاء ثابتة، بعد أن حكم الله سبحانه للقرآن بالحفظ (\*)، وما يترتب على ذلك من دور في إثراء الفهم، وتوسيع آفاق المتلقى المعرفية تبعاً لتنوع المتكلمين، كما نجد آفاق ذلك في ظهور التفسيرات المتعددة للقرآن الكريم، كـ"تفسير الرواية" وـ"التفسير في ضوء الاعتقاد" وـ"التفسير الصوفي" وـ"التفسير الشيعي" وـ"تفسير التجديد الإسلامي". وإلى جانب ذلك تفسيرات لغوية ونحوية وأدبية وفقهية وتاريخية<sup>(٧)</sup>.

ومستوى رابع فني (قصصي) تارخي، إذ يهدف الخطاب القرآني إلى خلق وعي تاريجي لدى المتلقى من أجل تعميق تواصله مع واقعه، وذلك من خلال الاهتمام بالقصة التي شغلت حيزاً كبيراً جداً مقارنة بآيات الأحكام<sup>(٨)</sup>، إذ تناولت القصص تجارب عدد من الجماعات البشرية، ليتمكن المتلقى من التقاط الإشارات التي أثارتها الواقعية الماضية، ولكي تثير له الطريق الطويل الذي يتوجب عليه أن يقطعه في مسيرة حياته متجاوزاً أكبر قدر ممكن من العقبات والعثرات، متكناً على رصيد ثري من الأساليب والنظم التي توصله إلى أهدافه بجهود أقل، وسرعة أكبر. تلك الأساليب والنظم التي كانت حركة التاريخ حفلاً لتجاربها، وميداناً لإثبات عناصر القوة والضعف فيها، لأن بدء التجربة دائماً من نقطة الصفر دونما التفات إلى مردوداتها التاريجية، يضيّع على المتلقى جهداً كبيراً، ووقتاً طويلاً ما كان له أن يضيّعها لو التفت إلى الخبرات الماضية، والتجارب السابقة للأمم والجماعات التي يستمدّ منها المواقف والمنطقات<sup>(٩)</sup>. فأسلوب القصة، وبناؤها قد صيغ على وفق مبني تعابيري مفتوح لإمكانات استخلاص النتائج المتعلقة بواقع كل قاريء حسب تجربته، وبقدر وعيه.

وقد حدا هذا بعد التاريجي المتفاعل مع الواقع المعيش بالخطاب القرآني إلى عدم حصر أسلوبه القصصي بالفنين والجماليات المنقطعة عن واقع المتلقى، فالجمل الأسلوبية متقدان في الطرح الفكري، بشكل ذاتي الفوارق فيه بين البعدين ليتحولا إلى بعدين واحد، وهو الأسلوب القرآني، كل هذا فضلاً عن ترك النص مساحات للمتلقى، يتحرك فيها ذهنه، و تستيقظ مشاعره، حيث يجد نفسه مشدوداً إلى النص ليفكر ويتدبر ويندمج مع الأحداث..<sup>(١٠)</sup>. وإن هذا الرابط بين الجانب

(١) ينظر سورة آل عمران: ٧.

(٢) ينظر كيف نتعامل مع القرآن العظيم: ٤٧-٤٨.

(٣) تفسير مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى: ٧/١٧٢.

(٤) ينظر مباحث في علوم القرآن: ٤٩ و ٥٢.

(٥) م.ن: ٥٦.

(٦) ينظر م.ن: ٥١ و ٥٦.

\* يؤكد الله تعالى في محكم كتابه حفظه للقرآن الكريم في سورة الحجر الآية: ٩ (إنا نحن نزّلنا الذكر وإنما له لحافظون).

(٧) مسؤولية التأويل: ١٤١.

(٨) ينظر حول القصة الإسلامية: ٧.

(٩) ينظر التفسير الإسلامي للتاريخ: ٥-٦.

(١٠) ينظر حول القصة الإسلامية: ٣٩-٤٠.

الجمالي والجانب الواقعي داخل في صميم مركبات نظرية الاتصال التي تُعنى بمجال التواصل الذي يعد "وسيلة التفاعل الأساسية بين الأفراد والجماعات، للتحكم بالأنظمة المادية والرمزية، وبخاصة الأدب السردي"<sup>(١)</sup> كما تُعنى بكيفية التواصل مع المتنقي، وإصالها له رسالة معينة عبر التراتبية الألسنية المعروفة المكونة من المرسل الرسالة المرسل إليه<sup>(٢)</sup>.

والمستوى الآخر من مستويات التوجّه القرآني المبكر نحو المتنقي هو مستوى جمالي، وينتجي هذا المستوى في توظيف أدوات الإثارة الفنية بتنوعها المختلفة، لإثارة المتنقي، وشد انتباهه، وتعزيز التواصل بينه وبين النص القرائي، إذ يستخدم الأسلوب القرآني عنصر التكرار حيناً، وعنصر المفاجأة حيناً آخر، وأسلوب الفرز لظاهرة ما بين الظواهر حيناً ثالثاً، ناهيك عن أساليب المسكون عنه، والحذف، وإشراك المتنقي بصفة عنصر أساسياً في الخطاب، عبر توجيه الخطاب إليه مباشرة، فضلاً عن أسلوب التنويع الموضوعي في الأداء، وغيرها كثير من الأساليب.

#### ١- المسافة الجمالية والوظيفة الانتباهية:

يقدم السرد القرآني أحدهاته من خلال أساليب فنية تهتم بالجانب النفسي، والفكري، والجمالي لدى المتنقي، فيكتب من خلالها فاعلية، وحيوية، وتمثل المسافة الجمالية أسلوباً من هذه الأساليب؛ وهي تؤدي وظيفة انتباهية تقوى عوامل الاتصال بين النص والمتنقي. وترتبط هذه الوظيفة بالسياق ارتباطاً مركباً، لأنها تثير المتنقي تحت تأثير الأحداث غير المتوقعة داخل النسيج السردي، هذا من جهة، ويشكل السياق القصصي نفسه الوعي الذي يتم من خلاله إدراك المواقف المفاجئة، وغير المتوقعة من جهة أخرى. ففي سورة آل عمران يجمع السرد بين ثلاث قصص لثلاث شخصيات، وهي امرأة عمران، وابنتها مريم، وزكريا، ويعتمد السرد في أسلوبية العرض لهذه القصص على أسلوب تشكيل التوقع لدى الشخصية، ولدى المتنقي ثم القيام بخلخلة هذا التوقع، من أجل إثارته، إذ يتشكل التوقع في قصة امرأة عمران من حادثة الإنجاب، فكان التوقع شيئاً آخر، كان الحدث المتصل بها هو الإنجاب غير المتوقع لأنشي بعد أن كان النذر حائناً حول ولد ذكر<sup>(٣)</sup>.

إن المفاجأة وقعت على امرأة عمران، عندما وجدت أن الوليد أنثى وليس غلاماً، وبظهر ذلك أولاً من قولها: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّي وَضَعَتْهَا أُنثى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكْرُ كَالأنثى وَإِنِّي سَمِّيَّتُهَا مَرِيمٍ وَإِنِّي أَعِدُّهَا بِأَكْ وَذُرِّيَّتِهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)<sup>(٤)</sup>، ثم إنها قبل ذلك، لما ندرت ما في بطنه لخدمة المسجد، كانت تعلم أن هذه المهمة مقصورة على الرجال دون النساء، لأسباب تتعلق بطبيعة الأنثى البوiological التي لا تسمح لها بالبقاء في المسجد في جميع الأوقات، كما يدل قولها على ذلك (وَلَيْسَ الذَّكْرُ كَالأنثى) ويقول المخoshi في هذا الصدد: "فَبَلَّ قَالَتْ: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّي وَضَعَتْهَا أُنثى) وما أرادت إلى هذا القول؟ قَالَتْ: قَالَهُ تَحْسِرًا عَلَى مَارَاتٍ مِنْ خَيْرِهِ رِجَانَهَا وَعَكَسَ تَقْدِيرَهَا فَتَحَزَّنَتْ إِلَيْهَا كَانَتْ تَرْجُو وَتَقْدِيرَ أَنْ تَلِدْ ذَكْرًا وَلِذَلِكَ نَذَرَتْهُ مَحْرَرًا لِلسَّدَانَةِ، وَلَتَكْلُمَهَا بِذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّحْسِرِ وَالْتَّحْزُنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكْرُ كَالأنثى) تَعْظِيمًا لِمَوْضِعِهَا وَتَجْهِيلًا لَهَا يَقْدِرُ مَا وَهَبَ لَهَا مِنْهُ، وَمَعْنَاهُ: وَاللهُ أَعْلَمُ بِالشَّيءِ الَّذِي وَضَعَتْ وَمَا عَلِقَ بِهِ مِنْ عَظَامِ الْأَمْوَارِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ وَوْلَدَ آيَةً لِلْعَالَمِينَ، وَهِيَ جَاهِلَةٌ بِذَلِكَ لَا تَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئاً، فَلِذَلِكَ تَحْسِرَتْ"<sup>(٥)</sup>.

إن هذه المفاجأة، وهذه الخيبة لتوقعها، ستمهد السياق لمفاجآت أشدّ إثارة، كما هي الحال لدى مريم التي استجابت للأمر الواقع، كما استجابت لها من قبل، فرضيت بالقدر الإلهي، حينما تساءلت مستفيرة، ومستفهمة (قَالَتْ رَبِّي أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسِسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)<sup>(٦)</sup>، لقد استفهمت متعجبة "من حدوث الولد من غير أبي إذ ذاك من الأمور الموجبة للتعجب وهذه القضية أعجب من قضية زكريا لأن قضية زكريا حدث منها الولد بين رجل وامرأة وهذا حدث من امرأة بغير واسطة بشر ولذلك قالت ولم يمسني بشر<sup>(٧)</sup>. فيأتي الجواب: (قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) هنا اكتفت مريم، واستوعبت الأمر الإلهي الخارق، فلم تطلب آية.

إن المتنقي يتوقع الشيء نفسه بالنسبة لزكريا -عليه السلام- وخصوصاً إذا علم أنه أكثر قرباً من الله تعالى، كونه نبياً يرتبط ارتباطاً مباشراً بالله، وأنه هو الذي بادر إلى الدعاء، طالباً ذرية ترثه، فكان توجهه إلى ربّه ودعاؤه إياه "على سبيل ما لا تسبب فيه لكبر سنّه وعقر امرأته وكان وجوده كالوجود من غير سبب أي هبة محضة منسوبة إلى الله تعالى بقوله (من لدنك) أي من جهتك بمحض قدرتك من غير توسط سبب<sup>(٨)</sup>: (فَهَلَّكَ دُعَاءً زَكْرِيَاً رَبِّيَ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذِرَّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ {٣٨/٣} فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنْ

(١) موسوعة السرد العربي: ١١.

(٢) ينظر فلسفة التواصل: ٩. ولتوسيع في مفاهيم نظرية الاتصال ينظر: المصطلحات الأدبية الحديثة: ١٦٤. ونظرية التلقى: ٢٤٩-٢٧٤، وجمالية التلقى من أجل تأويل جديد للنص الأدبي: ١٠١-١١٧.

(٣) ينظر قصص القرآن الكريم: ١١٨/١.

(٤) سورة آل عمران: ٣٦.

(٥) الكشف: ١٦٩.

(٦) سورة آل عمران: ٤٧.

(٧) تفسير البحر المحيط: ١/٤٦٢.

(٨) تفسير البحر المحيط: ٢/٤٤.

الله وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِن الصَّالِحِينَ {٣٩/٣} قَالَ رَبِّ أَنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبْرُ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ {٤٠/٣} قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ أَيْنَكَ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشْنِيَّ وَالْإِنْكَارِ )<sup>(١)</sup>.

إن طلب زكرياء آية خالف توقعات القاريء، فقد كان "زكرياء لشدة لهفة على تحقيق البشري، ولدهشة المفاجأة في نفسه راح يطلب إلى ربها آية يجعل له علامه يسكن إليها")<sup>(٢)</sup>، كما أن العلامة بحد ذاتها: (قال أينك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً وأذكر ربك كثيراً وسبح بالعشني والإنكار) تحمل في طياتها كسرأ آخر، لأن المتكلمي يتوقع آية مادية كباقي أي الأنبياء، بخلاف آية الصمت هذه التي أخرجت زكرياء من مألفه في ذات نفسه .. لأن الآية اقتضت أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو أتجه إلى الناس؛ وأن ينطلق بالنطق إذا توجه إلى ربها وحده يذكره ويسبحه")<sup>(٣)</sup>.

وعندما ينتهي السرد إلى قصة عيسى، يلاحظ المتكلمي أن اختتم قصة عيسى بهذا المصير غير المتوقع، وهذا الانفتاح الكبير، يكسر كل توقعاته، حيث كان المنتظر نصر عيسى على أعدائه، وانتشار دينه، وذلك من خلال هذا المؤشر اللغوي الصربي في النص: (إذ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُشَرِّكُ بِكَلِمَةٍ مَنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِئُهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقْرَبَيْنَ )<sup>(٤)</sup> إلا أن النهاية كانت غلبة الفتنة المناوئة، أو كان الانتصار من نوع آخر غير متوقع: (إذ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مَتُوفِّيٌّ وَرَافِعٌ إِلَيَّ وَمُطْهَرٌ مِنَ الظِّنَنِ كَفُرُوا وَجَاعِلُ الظِّنَنِ أَنْبُعُوكَ فَوْقَ الظِّنَنِ كَفُرُوا إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَلَا خَمْكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلُّونَ )<sup>(٥)</sup>.

وقد حفقت هذه النهاية مبدأ التجانس من خلال الالمتوقع هذا، ويتمثل هذا التجانس "في الرسم القصصي لشخصية عيسى ولادة وموتاً .. فقد تجانست الولادة بلا أب، مع الوفاة بلا موت، فكما أرسلت السماء روحًا لإنجاب عيسى، فكذلك رفعته إليها دون أن تميته على الأرض")<sup>(٦)</sup>.

وتناسبًا مع جو المفاجأة والدهشة الذي طبع قصص هذه الشخصيات، قدم النص حادثة الإنجاب المعجز لدى زكرياء على حادثة الإنجاب المعجز لدى مريم ليس فقط في سياق سورة آل عمران، وإنما في سياق سورة مريم أيضًا، وذلك للدرج بالمتلقي من أمر غريب إلى أغرب، من قصة أو حادثة غريبة إلى ما هي أغرب، فقصة زكرياء مع ما فيها من الغرابة وهي أن يُرزق شيخ فان وعجوز عاقر بولد، أعقبت بما هو أغرب منها في قصة السيدة مريم وهو وجود ولد من غير ذكر")<sup>(٧)</sup>.

تخلق بداية قصة يوسف توقعًا لدى المتكلمي مفاده أن يوسف عليه السلام - سوف يتعرّض للأذى على يد اخوه، وذلك من خلال تحذير أبيه إياه من إخوته: (قَالَ يَا بُنْيَيْ لَا تَنْصُصْنَ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيُكَيِّدُوْا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلنَّاسِ عَذُوْ مُبِينَ )<sup>(٨)</sup>، إن هذا التحذير يتضمن عنصر تتبُّو بما سيحدث لدى المتكلمي، وعندما يُقْتَلُ الإخوة أباهم بمحاجة يوسف، يتوقع المتكلمي أن تسفر مصاحبة يوسف لهم عن حادثة افتراس من الذنب استناداً إلى قول يعقوب: (قَالَ إِنِّي لَيَخْرُّنِي أَنْ تَذَهَّبُوْا إِلَيْهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلُهُ الذَّنْبُ وَأَشْتَمْ عَنْهُ غَافِلُوْنَ )<sup>(٩)</sup>.

غير أن هذا التوقع سرعان ما يخيب عندما يكشف السرد أن الافتراض لا يتم بالفعل، وإنما الذي تم هو حادثة (افتعال) لعملية افتراس الذنب ليوسف، ومن هنا يمكن للمتكلمي أن يستكشف مدى جمالية هذا المنحى من القصص، لأنه سيعترف أولاً، أن لهذا التخوف من افتراس الذنب حقية سبکش السياق عنها، وهي أن الإخوة سيلأتون إلى أبيهم عشاء يكون، وسيقولون له: (قَالُوا يَا أَيُّا إِنَّا ذَهَبْنَا سَقَيْقَ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتُ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ )<sup>(١٠)</sup>. وثانياً سيفاجأ المتكلمي بحدث جديد، وهو إقاء يوسف في البر، وليس افتراسه من قبل الذنب. وبهذا المنحى البنائي للقصة، تتحقق إثارة فنية كبيرة الامتناع عندما تتفاصل المفاجأة مع عنصر التشويق، وبعد إبقاء يوسف في بئر مظلم، يتشوّق المتكلمي لمعرفة الأحداث التي تتبع هذه العملية والنتائج التي سوف تتمخض عنها")<sup>(١١)</sup>.

وفي المواجهة التي وقعت بين موسى والسحر، يشير النص إلى أن السحرة كانوا متيقنين من تفوقهم، وانطلاقاً من ثقتهم البالغة بسحرهم، وقدرتهم على الغلبة، خبروا موسى بين البدء بالإلقاء، أو يكونوا هم البدئين، إذ تبدو نبرة التحدي واضحة في هذا التخيير (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُثْقِيَ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ تَحْنَّنَ الْمُلْكِيَّنَ )<sup>(١٢)</sup>. والنصل قد شدد قبل هذا المشهد على إبراز سمة الاحتراف، والخبرة لدى السحر، وذلك في السياق الذي اقترح فيه الملا على فرعون أن يبعث في المدائن، ليرسلوا بكل ساحر عليهم: (قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ عَلَيْهِ {٣٤/٢٦} يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسُخْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ {٣٥/٢٦} قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخْاهُ وَأَبْعِثُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِيَّنَ {٣٦/٢٦} يَأْتُوكُمْ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلَيْهِ )<sup>(١٣)</sup>.

(١) سورة آل عمران: ٤١-٣٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٣٩٥/١.

(٣) ينظر م.ن: ٣٩٥/١.

(٤) سورة آل عمران: ٤٥.

(٥) سورة آل عمران: ٥٥.

(٦) دراسات فنية في قصص القرآن: ١٦٦.

(٧) ينظر تفسير البحر المحيط: ١٧٩-١٧٧/٦.

(٨) سورة يوسف: ٥.

(٩) سورة يوسف: ١٣.

(١٠) سورة يوسف: ١٧.

(١١) ينظر دراسات فنية في قصص القرآن: ١٦٦.

(١٢) سورة طه: ٦٥.

(١٣) سورة الشعراء: ٣٧-٣٤.

فقد حدث التحول الأكبر في أفق انتظار الحاضرين (فرعون والملا والجماهير المحتشدة)، وفي أفق انتظار القاريء عندما رأى إذعان السحر للحق الذي ظهر مع موسى، ورسوخ الإيمان في قلوبهم، إذ الحمية لم تأخذهم، لذلك تحول موقفهم من التحدي السافر إلى التسليم المطلق<sup>(٤)</sup>. وتزداد حدة المخالفة؛ مخالفة أفق انتظار القاريء، إذا استحضر مشهد حضور السحرة بين يدي فرعون، وتذكّر مستوى تفكيرهم، وطموحهم آنذاك: (وجاء السّحرةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّا

١٦) سورة الأعراف:

(٢) سورة طه: ٦٦-٦٧

٧٣-٧٠: سورة طه: (٣)

(٤) ينظر في ظلال القرآن: ١٣٤٩/٣ - ١٣٥٠.

لأجراً إن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبُونَ {١١٣/٧} قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمَنِ الْمُفْرَّبُونَ<sup>(١)</sup>، أي لمن أهل المنزلة الرفيعة في الدنيا، فزادهم على ما طلبوا<sup>(٢)</sup>. فعندما يرى المتنافي تحول هؤلاء السحرة من الكفر إلى الإيمان، وتمسكهم المتنين بقرارهم، على الرغم من تهديد فرعون إياهم بالقتل والنكل، عندما يرى المتنافي هذا الإصرار على الثبات، يتحول توقعه رأساً على عقب، فينظر إليهم وإلى القصة من بعد جديد، ويشعر كان القصة نشطت ذاكرته، وأعطته دفعه جديدة لمتابعة الحدث.

تشهد قصة موسى مع بنى إسرائيل مستوى آخر من مخالفة مجريات واقع السرد لأفق انتظار المتنافي، فبعد اجتيازبني إسرائيل البحر إلى البر، وبعد غرق فرعون وهلاكه، بالشكل الخارق الذي شهدوه، يأتي السرد بمشهد مرورهم على قوم يبعدون الأصنام، وكان المتوقع لبني إسرائيل أن يحاوروا هؤلاء القوم، ويرشدوهم إلى ترك ما هم فيه أو يعظوهم، ولكن لم يكن هذا ولا ذلك، وربما يُظن أنَّ القوم لم يكن منهم شيء من هذا، بل الذي كان منهم لا تتصوره العقول ولا يمكن أن توجد لها الأعذار والمسوغات. ولكنَّ القوم لم يكن منهم شيئاً من هذا، بل الذي كان منهم لا تتصوره العقول ولا يخطر ببال، هؤلاء الذين رأوا آيتين عظيمتين كانت واحدة منها كافية لإيمان أبعد الناس عن التوحيد، وهم السحرة من المصريين، كانت الأولى منها يوم ألقى موسى عصاه فألقى السحرة ساجدين .. وأمام الآية الثانية، فلقد كانت قريبة العهد بهم لم تجف أرجلهم من الماء حينما من الله عليهم بالسir في البحر، ومع هاتين الآيتين العظيمتين؛ فإنهما لما رأوا عباد الأصنام قالوا ياموسى اجعل لنا إلهنا كما لهم إله .. وما أعظم الفرق بين أولئك الذين قالوا مقالوه وبين أولئك الذين قالوا لفرعون وقد هددتهم وتوعدهم (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَعْفُرَ لَنَا رَبُّنَا حَطَّايَا أَنْ كُنَّا أُولَءِ الْمُؤْمِنِينَ)<sup>(٣)</sup>.

## ٢- المسافة الجمالية والسياق الأصغر:

فضلاً عن السياق الأكبر (المستوى التركيبي)، فإنَّ للسياق الأصغر (المستوى الإفرادي) دوراً كبيراً في خلق التوقع وإبراز اللاتوقع، إذ لا يرد في ذهن المتنافي أن يكون هناك حالة عصيان في صفوف الملائكة عندما أمرهم الله تعالى أن يسجدوا للمخلوق الجديد آدم، كما هو وارد في سياقات قصة الخلق على طول مساحات القصص القرآنية، لأنَّ الكلمة (الملائكة) بحد ذاتها دوراً كبيراً في خلق مفاهيم الإطاعة التامة، والامتثال الكامل للأوامر الإلهية لدى المتنافي، فالله الملك يُشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسليه، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله الله الواحد القهار، وهو يُنفذون أمره<sup>(٤)</sup>، كما تدل الآيات القرآنية على ذلك بشكل واضح: (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقُولِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ {٢٧/٢١}) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْعُرُونَ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خُشْبَتِهِ مُشْفَقُونَ<sup>(٥)</sup> (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فُرْقَهُمْ وَيَغْلُطُونَ مَا يُؤْمِنُونَ<sup>(٦)</sup>).

لذلك يتواجه المتنافي، ويندهش عندما يتصادم توقعه مع موقف إيليس الرافض، وعلى وجه الخصوص حينما يلتقي بهذه الشخصية، وبموقعها المضاد، بل وبظهورها المفاجيء، إذ كان السياق كله يدور حول إخبار الله الملائكة بأمر المخلوق الجديد، وكيفية استقبالهم لهذا الأمر، وحتى في مشهد تعليم آدم الأسماء، وقيامه بإخبار الملائكة بها، لا يجد المتنافي ظلاً لكان اسمه إيليس في صفوف الملائكة، لهذا عندما يبرز السرد موقف إيليس كصوت ناشر، يتصادم موقفه الرافض، وشخصيته المضادة مع توقعات المتنافي التي انتهت من ظلال مفردة الملائكة.

تخلق بعض المفردات توقعاً خاصاً لدى المتنافي عندما يسمع بها أو يقرأها من أول وهلة، ففي قصة يوسف يتتبأ المتنافي بقوة، وجسارة شخصية العزيز بمجرد أن يسمع بالاسم أو اللقب، فـ"في هذه الحال، يحلَّ الاسم بحسب مدلول الشخصية الذي يعتبر بالنسبة للقاريء مرجعاً مستقبلياً، وأفق انتظار"<sup>(٧)</sup>، فذواعي الاسم وظلله خلق لدى المتنافي أفقاً خاصاً شكل بدوره منظوراً نظر عبره إلى هذه الشخصية، قبل أن يرصد تحركاتها، إلا أنَّ هذا المنظور تشظي عندما تصادم مع موقف العزيز اللذين تجاه الفضيحة التي حدثت في بيته، وبهذا خابت توقعات المتنافي عندما رأى من هذه الشخصية التي كانت من رجاليات الدولة البارزين، هذا الموقف الضعيف تجاه زوجته، إذ كان المتوقع من خلال إيحاءات اسمه أو لقبه السلطوي (العزيز)؛ العزة والقدرة والمناعة<sup>(٨)</sup>، إلا أنَّ الذي رأه هو عجزه التام أمام الحالة "إذ لَمَّا تَأَكَدَ لِدِيهِ مغزاً لتها لغامه بل محاولة اغتصاب غلامه، لم يتتجاوز تأنيبه لها إلا قوله إِنَّكَ خاطئة، وثنيَ بأنَّ طلب منها، أن تستغفِر لذنبها، وهذا القول أقرب إلى التدليل والاسترضاء منه إلى التأنيب، بله العقاب"<sup>(٩)</sup>.

لقد خلقت حركة الكلمة أفقاً للمتنافي، ووظفه النص من خلال كسره إلى أداء دلالة الضعف، والخواء، والازدواجية لدى هذه الشخصية التي ارتضت أن يعاقب البريء من أجل طمس حقيقة الحدث.

وعندما يسمع المتنافي بكلمة البقرة، ويقرأها في سياق قصة موسى مع بنى إسرائيل في سورة البقرة، فإنه يتوقع أن تكون البقرة شخصية من شخصيات القصة، شأنها شأن الهدأ أو الكلب في قصة أصحاب الكهف، وبعد الدخول في

(١) سورة الأعراف: ١١٣-١١٤.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٨/٧.

(٣) القصص القرآني إيحاؤه ونفاته: ٢٧٥. والأية رقم ٥١ من سورة الشعرا.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية: ٤٠٧/٢.

(٥) سورة الأنبياء: ٢٧-٢٨.

(٦) سورة النحل: ٥٠.

(٧) النقد البنائي والنص الروائي: ١١٣.

(٨) ينظر اللسان (مادة عزز): ١٨٥/٩.

(٩) دراسة نصية أدبية: ٢٨٢.

أجواء القصة، وأمر موسى قومه القيام بذبحها، يتغير توقعه الأول، فيبطن أن الأمر متعلق بالقربان لله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُبْحُوْ بِقَرْهَةٍ قَالُوا أَتَخْدِنَا هُرْزُوا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ {٦٧} / {٦٨} ) قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكُرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَاقْفَلُوا مَا تُؤْمِرُونَ {٦٨} / {٦٩} ) قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْنَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءٌ فَاقْعُ لَوْنَهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ {٦٩} / {٧٠} ) قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ لَمْهَدِنَوْنَ {٧٠} / {٧١} ) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُشَبِّهُ الْأَرْضَ وَلَا تُسْقِي الْحَرَثَ مُسْلَمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا إِنَّ حِنْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَغْطِلُونَ {٧١} / {٧٢} ) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْعُ أَنْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْمِلُونَ {٧٢} / {٧٣} ) فَقَاتَ أَضْرَبْتُ بِهِ بَعْضَهَا كَذَلِكَ حَنْجِيَ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَبِرِّيْكُمْ أَيَّاهُهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١).

فقبل الوصول إلى قوله (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِيَعْضِهَا) <sup>(١)</sup> كانت كل التوقعات تشير إلى أن أمر الذبح مر هون بالقريان، لأن النص الذي أجاب على أسئلة القوم يدقق في ذكر أوصاف البقرة، وخصائصها، فإذا به في النهاية يخالف هذا الاستعداد الذهني لديه: (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِيَعْضِهَا كُلُّهُ اللَّهُ الْمُوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ اِيَّاهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقُلُوْنَ) ولا يكفي السرد بهذا القدر من مخالفة التوقع، بل تأتي النهاية لتجسد بعد آخر من أبعاد كسر أفق توقع القاريء: (ثُمَّ قَسَّتْ قُلُوبُكُمْ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُمْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَنْقَحِرْ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَعُ فَيَرْجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشْنَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ) <sup>(٢)</sup>

إن هذا التعمق النهائى على القصة يجسّد كسرًا آخر لأفق الانتظار لدى القاريء، لأنَّ هذه الحادثة المعجزة، كان من شأنها أن تستجِّش "في قلوب بني إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى، وتعمقًا على كلٍ ما سلف من المشاهد، والأحداث وال عبر والعظات، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب" (٣). إذ أصبحت قلوبهم أصلب من الحجارة، بدل أن تلين، وتستقر على الحق، و تستكين.

### ٣- المسافة الجمالية وأسلوبية العرض :

يستعمل السرد القرآني أسلوب القطع المفاجيء منتقلاً من شخصيات إلى شخصيات جديدة، وبذلك يكون القارئ مجبراً على محاولة إيجاد صلات بين السياق المأثور حتى الآن، والظهور المفاجيء للشخصية في الحديث، ففي مشهد السجود في قصة الخلق، وبعد ظهار إيليس امتناعه السجود لأدم، وخضوع الملائكة للأمر الإلهي، ينتقل السرد إلى شخصية جديدة تظهر على مسرح الأحداث فجأة، وهي شخصية حواء، من دون مقدمة ولا تهيئة: (□ وَقُلْنَا يَا آدُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُنَا مِنَ الظَّالِمِينَ) (٤)، وبدخول حواء إلى أجواء القصة تشهد الأحداث تطورات جديدة تمثل في سكنى الجنة، والأكل منها، والنهي عن شجرة، وإغواء الشيطان لأدم وحواء، وأخر أحهما من الجن، وتوبتهم، واصرار الشيطان على موقفه.

وهذا هو الأسلوب المتبوع في تقديم شخصية داود، في قصة الملا من بنى إسرائيل، فبعد أن مهد السرد لبروز طالوت، كانت كل التوقعات تشير إلى أن الذي يقوم بقتل جالوت هو طالوت، والمعركة سوف تنتهي على يديه، ولكن السرد كسر هذا التوقع عندما داهم المتنقى باطهار داود، كشخصية جديدة واجهت جالوت، وقتلته: (فَهَمُوْهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلُواْ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعَ اللَّهِ النَّاسَ بِعَضَهُمْ بِعَضَهُمْ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (٥).

ويتفاجأ المتألق بظهور شخصية حيوانية في المشهد الذي يعرض فيه السرد صورة الكهف، وهيئة الفتية النائمين داخله، وهذا الظهور المفاجيء يحقق امتاعاً فنياً حينما يستوقف المتألق دخول شخصية الكلب إلى بيئة القصة، فالنarrator يتحدث عن شخصيات أدمية هربت من مناخ الكفر، والتراجت إلى الكهف. والمتألق يتوقع أن يظل الرسم التصصي حائماً حول هذه الشخصيات الأدمية، لكنه سرعان ما يتفاجأ بشخصية حيوانية ضمن أهل الكهف<sup>(٤)</sup>. ولا ينحصر الإيماع الفني لهذا الأسلوب في العرض بكونه " مجرد عصر فحسب، بل يتعداه إلى عناصر أخرى تتحقق الامتعاض الفني والفكري لدى المتألق، فيغض النظر عن كون المفاجأة أحد العناصر الفنية التي تستثير اهتمام المتألق .. فإن عملية الاستخلاص أو الاستثناء أو الاستشاف تقلل أيضاً مرشحة بأكثر من استخلاص للدلالة التي ينطوي الموقف عليها من وراء هذا الرسم "<sup>(٥)</sup>.

وفي ظهور الهدى على مسرح الأحداث في قصة سليمان مع ملكة سبا، يتلمس المتنقي الترابط بين القطع بالشخصية الجديدة، والأبعاد الفكرية التي يستهدفها السرد: وَنَفَقَ الطِّيرُ فَقَالَ مَا لَيْ لَا أَرَى الْهَدْدَهُ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِيْنَ {٢٠/٢٧} لِأَعْيَنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْيَنَهُ أَوْ لِيَتَبَيَّنَ سُلْطَانَ مُبِينٍ {٢١/٢٧} فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحْطَثُ بِمَا لَمْ تُحْطِ بِهِ وَجْهَنَّمَ مِنْ سَبِيلًا يَقِينًا {٢٢/٢٧} إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ {٢٣/٢٧} وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَزَّيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهِنُّدُونَ {٢٤/٢٧} أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

(١) سورة البقرة: ٦٧-٧٣.

(٢) سورة البقرة: ٧٤.

(٣) في ظلال القرآن: ٨٠/١

٣٥: سورة البقرة (٤)

## (٥) سورة البقرة: ٢٥١

(٦) ينظر دراسات فنية في قصص القرآن: ٢٥٧.

۲۵۷: م.ن (۷)

يُخرجُ الْحَبَّةَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفَوْنَ وَمَا تُعْلَمُ {٢٥/٢٧} {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } {٢٦/٢٧} قَالَ سَنَنُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ {٢٧/٢٧} اذْهَبْ بِكَتَابِي هَذَا فَلَقْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (١).

إن هذا التقى جعل للهدى ذكرًا، بعد أن لم يكن له أي وجود حتى هذه اللحظة داخل النسخة السريدة، وبهذا الظهور المفاجيء يشهد السرد تحولات جوهرية، لأن الهدى هو الذي يأتي بخبر مملكة سباً وملكتها، فانفتح السرد على أبعاد كبيرة، وحقيقة، بإلقاء الضوء على مجتمع غاب عن سليمان أي علم به، وأما الأبعاد الدقيقة فتمثل في النفاد إلى الملامة النفسية، والمظاهر الإدارية لدى النبي سليمان، ومعتقدات بلقيس وقومها، وزراعة عقلها، وأسلوب إدارتها للملكة، وكيفية إيمانها. فكل هذا قد تم عبر الظهور المفاجيء للهدى الذي اختفى فجأة كظهوره المفاجيء، تاركاً للحدث أن يأخذ مجرى لكى يتم تسليط الضوء على شخصيتي سليمان وبلنقيس.

سلك السرد القرآني أسلوب عرض قصص متعددة في سياق واحد متتابع، داخل نطاق سورة واحدة، كما هو جار في سياق سور الأعراف، وهو د، ومريم، والأنبياء؛ حيث أورد السرد في سورة الأعراف -على سبيل المثال- قصص نوح، وهو د، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى في نفس متتابع. لكن هذا المتتابع لا ينتهي إلى رتبة أسلوبية، لأن أسلوب العرض سلك أسلوباً متشابهاً في عرض ثلاث قصص، ثم عمد إلى كسر هذا النسق المتتابع المتشابه في العرض، إلى أسلوب مغاير، وبهذا يقوم النص بخلق أفق للانتظار لدى المتلقى، ويقوم بكسره، فقصة نوح بدأت بقوله: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَيْ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمَ اغْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ أَهْلَهُ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ) (٢) ثم نسق بعده عليه بقوله: (وَإِلَى نَمُوذَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمَ اغْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ أَهْلَهُ أَخَافُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَدَرُوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٣).

إن هذا الأساس الذي أنسنه السورة من خلال هذا الأسلوب في العرض، خلق أفقاً لتوقعات المتلقى، يكاد يطمئن إليه، فيقوم النص بحزحة هذا الاطمئنان، فيعدل عنه في قصة لوط إلى أسلوب آخر: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُّوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقْنَا اللَّهَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) (٤)، فلم تبدأ بالأسلوب المتبعة في القصص الواردة، فلم تقل: إلى أهل سodom أخاهم لوطاً، أو أرسلنا لوطاً إلى قومه ونحو ذلك، كما سيأتي من جديد في قصة موسى (٥). ثم يعود إلى الأسلوب الأول في قصتي شعيب، وموسى، حتى إذا وصلنا إلى قصة القرية المطلة على البحر، نجد الأسلوب قد تغير كلّياً: (وَاسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْجَنْرِ إِذْ يَعْلَوْنَ فِي السَّبَّتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِيَانِهِمْ يَوْمَ سَبَّتِهِمْ شُرًّاً وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ كُلُّكُلِّ نَبْلُوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ) (٦)، ثم يتغير الأسلوب إلى نوع آخر في قصة بلعم بن باعوراء: (وَاقْلُ عَلَيْهِمْ نَبِيًّا الَّذِي أَنْتَاهُ أَيَّاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِيْنَ) (٧).

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن هذا الأسلوب في عرض القصص لم يأت من أجل كسر الرتابة لدى المتلقىحسب، وإنما هو متواشج مع الأبعاد الدلالية داخل القصة أيضاً، وقد التفت صاحب نظم الدرر إلى هذا بعد التفاتة بارعة عندما أشار إلى أن هذا العدول الأسلوبوي يتغلب بمقاصد السياق لأنّ من أعظم المقاصد بسياق هذه القصص تسليمة النبي (٨) في مخالفة قومه له وعدم استجابتهم وشدة أذاهم وإنذار قومه أن يحل بهم ما حل بهذه الأمم من العذاب، وقصص من عدا قوم لوط مشابهة لقصة قريش في الشرك بالله والأذى لعباده المؤمنين، وأما قصة قوم لوط فزادتة عن ذلك بأمر فطبع عظيم الشناعة شديد العار والفحش فعدل عن ذلك النسق تباعها عليه تهويلاً للأمر وتبسيطاً له، ليكون في التسلية أشد، وفي استدعاء الحمد والشكر أنت، وحينذا يتراجع أن يكون العامل (اذكر) لا (أرسلنا) أي واذكر لوطاً وما حصل عليه من قوله زيادة على شركهم من رؤيته فيهم هذا الأمر الذي لم يبق للشناعة موضع، فالقصة في الحقيقة تسليمة وتذكرة بنعمة معافاة العرب من مثل هذا الحال وإنذار لهم سوء المال (٩).

وبتبدأ قصة نوح، وهو د، وصالح في سورة هود على هذه الشاكلة: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَيْ قَوْمِهِ إِنَّكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) {٢٥/١١} {أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّكُمْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الْيَمِ} {٢٦/١١} {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكُ إِلَّا بَشَرًا مُثْنَثًا وَمَا تَرَاكُ أَتَبْعَكُ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بَادِي الرَّأْيِ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} {٢٧/١١} قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيته من ربّي واتّاني رحمة من عنيه فعميت عليكم انزل مكموها وانتم لها كارهون {٢٨/١١} و/oria قوم لا أساڭكم عليه مالا ان اجري الا على الله وما أنا بطارد الدين امتو ايه ملاقو ربهم ولکنی اراكم قوما تجهلون {٢٩/١١} و/oria قوم من ينصرني من الله ان طردتهم افلا تذكريون {٣٠/١١} ولا اقول لكم عدي خرائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول اني ملك ولا اقول للذين تزدرى اعنيكم ان يوتيهم الله خيرا الله اعلم بما في أنفسهم اني اذا لمن الظالمين {٣١/١١} قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فاتّينا بما تعذنا ان كنت من الصادقين {٣٢/١١} قال انتا يأتكم به الله ان شاء واما انتم بمعجزتين {٣٣/١١} ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يعوبكم هو ربكم وإليه ترجعون {٣٤/١١} ام يقولون افتراء قل ان افتريته فعل ايجرامي وانا بريء مما تحرمون {٣٥/١١} وأوحى الى نوح انه

(١) سورة النمل: ٢٨-٢٠.

(٢) سورة الأعراف: ٥٩.

(٣) سورة الأعراف: ٧٣.

(٤) سورة الأعراف: ٥٠.

(٥) ينظر نظم الدرر: ٦٢/٣.

(٦) سورة الأعراف: ١٦٣.

(٧) سورة الأعراف: ١٧٥.

(٨) نظم الدرر: ٦٢/٣.

لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا مَنْ قَدْ أَمْنَ فَلَا تَبْتَشِّنْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ {٣٦/١١} وَاصْنَعْ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغَرَّقُونَ {٣٧/١١} وَيَصْنَعْ الْفَلَكَ وَكُلُّمَا مَرَ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخْرُوا مِنْهُ قَالَ إِنَّ سَخْرُوا مِنَنَا فَإِنَا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا سَخْرُونَ {٣٨/١١} فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيَهُ وَيَجْلِ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ {٣٩/١١} حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنَوُّرُ فَلَنَا احْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقُولَ وَمَنْ أَمْنَ وَمَا أَمْنَ مَعَهُ الْأَقْلَلُ {٤٠/١١} وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا سَمْ اللهُ مَحْرَاهَا وَمَرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ {٤١/١١} وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجِ الْجَبَلِ وَنَادَى نُوحَ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بَنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ {٤٢/١١} قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَتَصَمَّنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمُ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغَرَّقِينَ {٤٣/١١} وَقَيلَ يَا أَرْضُ الْجَعْيِ مَاءُكَ وَبِأَسَامَ أَقْلَعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوْتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقَيلَ بُعدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٤٤/١١} وَنَادَى نُوحَ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ {٤٥/١١} قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلَكَ أَنْهُ عَمَلَ غَيْرَ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكَ أَنْكَوْنَ مِنَ الْجَاهِلِينَ {٤٦/١١} قَالَ رَبِّي إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لَيْ بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَعْفَرُ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مَنْ الْخَاسِرِينَ {٤٧/١١} قَيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ سَلَامًا مَنَا وَبِرَكَاتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أَمْمِ مَمْنَ مَعَكَ وَأَمْمَ سَنَمَعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ ثُمَّ عَذَابُ الْيَمِّ {٤٨/١١} وَتِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيَ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاقْسِرْ إِنَّ الْعَاقِقَةَ الْمُنْتَقِينَ {٤٩/١١} وَإِلَى عَادَ أَخَافِمُهُوْدَا قَالَ يَا قَوْمُ اغْبُدُوا اللهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمُ الْمُفْتَرُونَ {٥٠/١١} يَا قَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّ أَجْرِيَ إِلَى الْذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَقْلُونَ {٥١/١١} وَبِأَسَامَ اسْتَغْفِرُ وَرَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا وَيَرْدَكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْ مُجْرِمِينَ {٥٢/١١} قَالُوا يَا هُودٌ مَا جِئْنَا بِيَسِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي الْهَيَّاتَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ {٥٣/١١} إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ الْهَيَّاتِ بِسُوءِ قَالَ إِنِّي أَشَهَدُ اللهُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مَمَّا تُشَرِّكُونَ {٥٤/١١} مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي حَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْتَرُونَ {٥٥/١١} إِنِّي تَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ ذَآيَةٍ إِلَّا هُوَ أَحْدَى يَنْاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى الْمُسْرَاطِ مُسْتَقِيمٌ {٥٦/١١} فَإِنْ تَوَلُوا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْضُرُونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَقِيقٌ {٥٧/١١} وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْيَنَا هُوْدًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَمَّا تَنَحَّيْنَا هُمْ وَلَا تَنْصُرُونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ جَبَرٍ غَنِيدٍ {٥٩/١١} وَأَتَبْعُوْنَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لُغْنَةً وَبِيَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لَعَادَ قَوْمُ هُودٍ {٦٠/١١} وَإِلَى ثَمُودَ أَخَافِمُهُ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمُ اغْبُدُوا اللهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَشْكَمُ مَنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْرَكُمْ فِيهَا فَلَسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُحِبٌّ<sup>(١)</sup>.

إِنَّ هَذَا الْمُنْوَالَ مِنَ الْعَرْضِ كَوْنُ لَدِي الْمُتَلَقِّي تَوْقِعًا مَفَادِهِ أَنَّ الْقَصَصَ الْأُخْرَى سُوفَ تَأْتِي عَلَى الْمُنْوَالِ نَفْسَهِ؛ إِلَّا أَنَّ مَجِيءَ قَصْنِي إِبْرَاهِيمَ، وَلَوْطَ خَبِيبَ هَذَا التَّوْقِعِ، لِأَنَّهُمَا اعْتَدَتَا أَسْلُوبًا مَغَيْرًا مِنْ حِيَّثِ الْبَنَاءِ، وَمِنْ حِيَّثِ التَّتَّالُ، فَضْلًا عَنِ الْاِخْتِلَافِ فِي الْمُوْضِعَاتِ، وَالْمُرْتَكَزَاتِ؛ إِذَا كَانَ الْمُوْضِعُ الْمُحْوَرِيُّ فِي قَصَّةِ نُوحٍ، وَهُوَدٌ، وَصَالِحٌ هُوَ إِخْلَاصُ الْعِبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَعَدَمِ الإِشْرَاكِ بِهِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِذَا الْأَمْرِ مِنْ نَضَالِ هُولَاءِ الْأَنْبِيَاءِ فِي مَسِيرَتِهِمُ الدُّعَوِيَّةِ. أَمَّا مَوْضِعُ قَصْنِي إِبْرَاهِيمَ وَلَوْطَ، فَهُوَ مَغَيْرُ تَامَّاً، فَكَانَ التَّرْكِيزُ مَنْصَبًا عَلَى حَسْنِ الضِّيَافَةِ لِدِي إِبْرَاهِيمَ سَوْلَهُ بِطَرِيقَةِ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ - وَعَلَى الْمَعْجَزَةِ الْأَلْيَاهِيَّةِ، وَرَحْمَتِهِ بِالْأَنْوَارِ، حِيَثُ كَانَ الْبَشَرِيُّ السَّارَةُ بِالْوَلَدِ وَبِوْلَدِ الْوَلَدِ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ الزَّوْجَانَ مِنَ الْعَرْمَعَتِيَّةِ. أَمَّا فِي قَصَّةِ لَوْطِ فَكَانَ التَّرْكِيزُ عَلَى شَنَاعَةِ فَعْلِ اِبْنَتِهِ قَوْمَ مَنْحَرَفُونَ، مَعَ تَسْلِيْطِ الضَّوءِ عَلَى الْعَذَابِ، وَتَقْصِيلَاتِهِ تَنَاسِبًا مَعَ شَنَاعَةِ الْفَعْلَةِ وَقَبْحِهَا. وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَلَّهُ غَيْرُ السَّرْدِ "اسْلُوبُ الْحَكَايَةِ" فِي الْقَصَصِ الَّتِي قَبْلَهَا وَالَّتِي بَعْدَهَا<sup>(٢)</sup>.

وَبِيَنِمَا يَجِدُ الْمُتَلَقِّي نَفْسَهُ قَدْ اسْنَجَمَ مَعَ اسْلُوبِ الْقَصَصِيْنَ وَأَحَدَاهُمَا وَمُسْتَجَدَاهُمَا، إِذَا بِهِ يَلْتَقِي بِالْأَسْلُوبِ الْأُولِيِّ مِنْ حَسْنِ الْعَرْضِ، وَتَقْصِصُ الْمُكْيَالِ وَالْمُبَيْزَانِ إِنِّي أَرَكَمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ مُحِيطٌ<sup>(٣)</sup>.

١- (فَانْطَلَقا حَتَّى إِذَا رَكَبَا فِي السَّفِينَةِ حَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا أَقْدَ حِنْتَ شَيْئًا إِمْرًا {٧١/١٨} قَالَ أَلْمَ أَقْنَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ مَعِي صَبَرًا<sup>(٤)</sup>.

٢- (فَانْطَلَقا حَتَّى إِذَا لَقَيْنَا غَلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقْدَ حِنْتَ شَيْئًا ثُكْرًا)<sup>(٥)</sup>.

(١) سُورَةُ هُودٍ: ٦١-٢٥.

(٢) تَفْسِيرُ التَّحْرِيرِ وَالتَّوْبِيرِ: ١١٦/١٢.

(٣) سُورَةُ هُودٍ: ٨٤.

(٤) سُورَةُ الْكَهْفِ: ٧٠.

(٥) سُورَةُ الْكَهْفِ: ٧١.

(٦) سُورَةُ الْكَهْفِ: ٧٤.

٣- (فَانطَّلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعُمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَن يُضَيِّعُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقُضَ فَلَاقَاهُمْ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَا تَخْذُنَتْ عَلَيْهِ أَجْرًا )<sup>(١)</sup>

تظهر هذه المراحل الثلاث، أن رحلة موسى، ومصاحبه لهذا الرجل، بدأت وانتهت بمفاجآت غريبة، حتى لحظة الانفصال وانتهاء القصة: (قالَ هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَابِبُكِ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبَرًا )<sup>(٢)</sup>، حتى هذه اللحظة؛ يجد المتنقي نفسه سوالف الشخصية كذلك. أمام مفاجآت متواالية لا يجد لها مسوًى، فلا يعرف المتنقي من هو الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة، فلم يتبه السرد باسمه، تكملا للجو الغامض الذي يحيط به .. إن القوى العجيبة لتحكم في القصة منذ نشأتها<sup>(٣)</sup>.

وقد ابتدأت هذه الأحداث كلها بأسلوب واحد، وبصيغة واحدة، وهي (فانطلاقا)، إذ يوحى التكرار لفعل الانطلاق، باستمرارية الحدث، ومواصلة مصاحبة موسى لهذا الرجل، إلا أن حادثة الانفصال تقطع مسارات هذا التوقع، وتعود بالمتنقي إلى نقطة البداية، كما عادت بموسى إلى النقطة نفسها.

وفي مشهد عودة موسى من مدين إلى مصر عبر طور سيناء، لا ينقطع موسى ولا المتنقي أية إشارات إلى حادثة غريبة قد تحصل، كما التقاطه في التجربة السابقة مع العبد الصالح: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجْلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آتَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ إِمْكُنُوا إِنِّي آتَيْتُ نَارًا لَعْلَىٰ أَتَيْكُمْ مِنْهَا بِخَيْرٍ أَوْ جُنُونٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْنَطُلُونَ )<sup>(٤)</sup> فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ {٢٨/٣٠} وَأَنَّ الْقِعَدَاتِ كَلَّمَ رَأَاهَا تَهَزُّ كَانَهَا جَانٌ وَلَيْ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعْطِ يَا مُوسَى أَقْلِيلًا وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْيَنِ )<sup>(٥)</sup>.

إن موسى توقع أن تكون النار ناراً طبيعية ليأتي منها بجهوة لأهله، وب مجرد الوصول إليها يجد نفسه أمام أمر خلل توقعه، وتوقعات المتنقي، لذلك لم يمتلك نفسه أمام الأمر العجيب؛ نداء الباري أولًا ثم تحول العصا إلى أفعى، ففر هارباً، وإمعاناً في المفاجأة يرصد النص ذهول موسى وعدم معرفة مصدر النداء بدلالة الفعل المبني للمجهول (نودي)<sup>(٦)</sup>. ومن مظاهر المفاجأة المركبة، تعلق مفاجأة المتنقي بالمفاجأة النصية (السيقانية) الحاصلة على الشخصيات، وهذا ما يسمى بـ(انصهار الأفق)، ويقصد به مواجهة أفق توقع الذي يفترضه العمل، وأفق التجربة الذي يكملا المتنقي وانصهارهما، ليكونا فهم العمل على أحسن صورة<sup>(٧)</sup>، وفي قصة يوسف، وفي مشهد استضافة امرأة العزيز للنسوة : (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرُهٍ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَغْدَتْ لَهُنَّ مُنْكَأً وَاتَّكَلَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتُهُنَّ أَكْبَرْنَهُنَّ وَقَلَّ حَاسِّ بِهِ مَا هَذَا إِلَّا مَلْكٌ كَرِيمٌ )<sup>(٨)</sup>.

اندهشت النسوة، وتعجبن فقط عن أيديهن نتيجة الانبهار أمام جمال يوسف وحسنه، والمتنقي يتعجب ويسأب بالدهشة نتيجة الانبهار الذي أصاب النسوة، حتى وصل بهن الأمر إلى الاندماج في روعة جمال يوسف، ونسيان ذاتهن في تلك اللحظة، فالحادثة حادثة عادية، وإن كان جمال الفتى غير اعتيادي، إلا أن الذي حولها إلى حادثة مدهشة غريبة لدى المتنقي هو حالة الانبهار وقطع الأيدي لدى النسوة.

وقد يتوقف الذهول وخيبة التوقع على الشخصيات فقط، والمتنقي ينظر إلى الأحداث من خلال زاوية نظر محددة من قبل السارد، كما نجد هذا النوع في قصة أصحاب الجنة، فقد صيغت القصة على وفق مبنى ففي معتمد على كسر أفق توقع الإخوة الثلاثة: (إِنَّا بِلَوْنَاهُمْ كَمَا بِلَوْنَنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرُمُهُمَا مُصْبِحِينَ )<sup>(٩)</sup> {١٧/٦٨} وَلَا يَسْتَشْتُونَ {١٨/٦٨} فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ )<sup>(١٠)</sup> {١٩/٦٨} فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ )<sup>(١١)</sup> فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ )<sup>(١٢)</sup> {٢١/٦٨} أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرَبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ )<sup>(١٣)</sup> {٢٢/٦٨} فَانطَّلَقُوا وَهُمْ يَتَحَاقِّنُونَ )<sup>(١٤)</sup> {٢٣/٦٨} أَنْ لَا يَدْخُلُنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ )<sup>(١٥)</sup> {٢٤/٦٨} وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ )<sup>(١٦)</sup> {٢٥/٦٨} فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا أَضَالُونَ )<sup>(١٧)</sup> {٢٦/٦٨} بَلْ تَحْنَ مَحْرُومُونَ )<sup>(١٨)</sup> {٢٧/٦٨} قَالَ أَوْسَطَهُمُ الْأَنْ أَقْلَمُ لَكُمْ لَوْلَا تُسْبِحُونَ )<sup>(١٩)</sup> {٢٨/٦٨} قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ )<sup>(٢٠)</sup> {٢٩/٦٨} فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ )<sup>(٢١)</sup> {٣٠/٦٨} قَالُوا يَا وَلِيَّنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِيْنَ )<sup>(٢٢)</sup> {٣١/٦٨} عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يَنْدِلَّنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبَّنَا رَاغِبُونَ )<sup>(٢٣)</sup> {٣٢/٦٨} كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعِذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ )<sup>(٢٤)</sup>.

تمثل القصة إحدى طرائق الأداء الفني للقصة في السرد القرآني، فهي تعتمد على مفاجآت مشوقة، وخيالات صارخة لأفق توقعات الشخصيات الثلاث، كما أن فيها سخرية بالكيد البشري العاجز أمام تدبير الله، وحكمته، وفيها حيوية في العرض حتى لكان المتنقي يشهد القصة حية حين تقع أحداثها أمامه وتتوالى<sup>(٢٥)</sup>. وقد جعل السرد القرآني من هذه الطريقة في العرض سبيلاً لخلق الوعي لدى المتنقي، بحيث يجعل من هذا الوعي منطلقاً لخلق التوازن في الممارسات اليومية تجاه ذاته، وتجاه الآخرين، مما يجعله في حالة توافق بين مفهومي الأخذ والعطاء، السماء والأرض، الأغنياء والفقراء، مثلما حدث للشخصيات الثلاث التي خرجت بتجربة إيجابية من حالة الخيبة التي حصلت لها، فانتهت إلى القول:

(١) سورة الكهف: ٧٧.

(٢) سورة الكهف: ٧٨.

(٣) ينظر في ظلال القرآن: ٤/٢٢٨١-٢٢٨٢.

(٤) سورة القصص: ٣١-٣٩.

(٥) ينظر في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣١-٢٣٣٠.

(٦) ينظر الحياة بحثاً عن السرد، ضمن كتاب الوجود والزمان والسرد: ٤٧. وجمالية التبني من أجل تأويل جديد للنص الأدبي: ١٠١.

(٧) سورة يوسف: ٣١.

(٨) سورة القلم: ١٧-٣٢.

(٩) ينظر في ظلال القرآن: ٦/٣٦٤.

(قالوا يا ويلنا إنما كُنا طاغين) وذلك لأنّ (خيبة التوقع) تعدّ "عامل التقدم الأهم في العلم كما في التجربة الحياتية: إنها تشبه تجربة رجل أعمى لا يحس بوجود عائق في طريقه إلا حين اصطدامه به. فنحن لا ندخل حقيقة في علاقة مع (الواقع) إلا حين نلاحظ أنّ فرضياتنا كانت خاطئة، بحيث يكون دحض أخطائنا، التجربة الإيجابية التي نستخلصها من الواقع"<sup>(١)</sup>.

### الاستنتاج

- ترك الخطاب القرآني مساحات واسعة للمتنقى / الإنساني المتنقى، حتى توصل الأمر إلى جعله محوراً فاعلاً في فعل التحقق النصي، وعنصراً ثابتاً في إنتاج الدلالة.

- لا يعتمد السرد القرآني على أسلوب التقديم الجاهز للشخصيات، فلا بدّ من قراءات المتنقى ومشاركته للوصول إلى الملامح النهائية للشخصيات، من هنا نجد انعدام الشبه التام لأسلوب الوصف في عرض الشخصيات، والاعتماد شبه التام على الحوار وأسلوب القصّ.

- من جماليات السرد القرآني تركيزه على خلق وعي متواصل متواصل للمتنقى عن طريق عرض سير الشخصيات والأقوام والجماعات البشرية على مرّ التاريخ من خلال أسلوب فني قصصي، ليزيد المتنقى علمًا بالماضي والحاضر من أجل الانطلاق نحو المستقبل. ومن خلال التدخلات السردية المتمثّلة في التعقيبات السردية في ثنایا القصص، والتعقيبات على خواتمتها يعمق السرد القرآني أبعاد الوعي لدى المتنقى.

### ملخص البحث باللغة الانكليزية

The huge change which the Quran made in all political, thought and civilization aspects accompanied by bigger transformation in the cultural and educational levels. Under its light, the deep scientific movement a citrated. This movement directly contributed in reviving to science and the knowledge and enrooted the science and innovation or creation.

The science of the Quran, Rhetoric Linguistics anticipated the sciences which the philologists and the scientists wanted to serve the Holy Quran, show its various miracles and aesthetics.

### ثبت المصادر والمراجع

- ❖ التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، دار الكتاب الإسلامي، قم-إيران، د.ت.
- ❖ تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٧٥٤-٥٦٥هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان- بيروت، ط٢، ١٩٨٣.
- ❖ تفسير التحرير والتتوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سخنون للنشر والتوزيع- تونس، د.ت.
- ❖ تفسير مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية، طهران، ط٢، د.ت.
- ❖ جماليات التلقى- دراسة في نظرية التلقى عند هانز روبرت ياؤوس و فولفغانغ إيزر، د.سامي إسماعيل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢.
- ❖ جمالية التلقى- من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، هانس روبيرت ياؤوس، ت:رشيد بنحدو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤.
- ❖ حول القصة الإسلامية، نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ❖ دراسات فنية في قصص القرآن، د. محمود البستانى، مجمع البحوث الإسلامية، إيران- مشهد، ط١، ١٤٠٨هـ/١٤١٣م.
- ❖ دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، د. سليمان الطراونة، ط١، (د.م) ١٤١٣هـ/١٤٩٢م.
- ❖ دلائل الإعجاز، الشيخ الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (٤٧١ أو ٤٧٤هـ)، قرآن وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
- ❖ سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نظرة، الشركة التونسية للتوزيع- تونس، ١٩٧٤.
- ❖ فعل القراءة- نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، فولفغانغ إيزر، ت: د. حميد الحمداني، د. الجلاي الكدية، الفاس- المغرب، د.ت.

(١) ينظر جمالية التلقى- من أجل تأويل جديد للنص الأدبي: ٦٥.

- ❖ شرح العقيدة الطحاوية، للإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي وشعييب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط٩، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦ م.
- ❖ فلسفه التواصل، جان مارك فيري، ترجمة وتقديم: د. عمر مهيل، منشورات الاختلاف- الجزائر ، والمركز الثقافي العربي بيروت- الدار البيضاء ، والدار العربية للعلوم- بيروت، ط١، ٢٠٠٦ م.
- ❖ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط١٢، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- ❖ القصص القرآني إيهاؤه ونفحاته، فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان-الأردن، ط١، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.
- ❖ كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط١٤١٩ هـ- ١٩٩٩ م.
- ❖ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن منظور، طبعة ملونة، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط٣، د٢.
- ❖ مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط٢٦، ٢٠٠٥ م.
- ❖ مسؤولية التأويل، د. مصطفى ناصف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام-جمهورية مصر العربية، ط١، ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤ م.
- ❖ المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم إنجلزي- عربي، د. محمد عناني، مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية- لونجمان، ط١، ١٩٩٦ م.
- ❖ نظرية التقلي- مقدمة نقدية، روبرت هولب، ت: عز الدين إسماعيل، كتاب النادي الثقافي الأدبي بجدة، ط١، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٤ م.
- ❖ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٨٥-٩٩٥ هـ)، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبدالرازاق غالب المهدى، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١- ١٩٩٥ م.
- ❖ النقد البنّوي والنّص الروائي- نماذج تحليلية من النقد العربي، أ-المنهج البنّوي - البنية - الشخصية، محمد سويري، دار أفريقيا للنشر، ط٢، ١٩٩٤ م.
- ❖ الوجود والزمان والسرد- فلسفة بول ريكور، ديفيد وورد، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٩ م.